المدارس النحوية بين المؤيدين والمعارضين

د. سعد عبد الرحمن العازمي

مقدمة:

يقوم هذا البحث على دراسة موضوع من الموضوعات التي اختلفت فيها كلمة الباحثين قديما وفي العصر الحديث، وهم يتابعون التأريخ للنحو العربي، ويرصدون أسباب نشأته ومراحل نموه والأسس التي قام عليها، وبيان ما بذله السابقون الأولون من النحويين من جهود أرست قواعده وأقامت بنيانه، وذلك هو موضوع "المدارس النحوية بين المؤيدين والمعارضين"، فمن القدماء من ترجم لبيئة واحدة كالسيرافي، ومنهم من ترجم للكثيرين، ورتبهم في طبقات كما فعل الزبيدي، وأبو الطيب اللغوي.

وعلى هذا النهج سار المحدثون؛ فمنهم من تناول مذهباً واحداً مثل الدكتور عبد الرحمن السيد في كتابه مدرسة البصرة النحوية، والدكتور مهدي المخزومي في كتابه مدرسة الكوفة، ومنهم من تناول جميع الاتجاهات مثل الدكتور شوقي ضيف في كتابه المدارس النحوية، والدكتور عبده الراجحي في كتابه دروس في المذاهب النحوية.

وليس من أهداف هذا البحث أن يتحدث بالتفصيل عن الاتجاهات النحوية أو مدارسه المختلفة، ولكنه يقدم مشاركة تمثل وجهة نظر خاصة في قضية إثبات المدارس أو رفضها، فيلمح في إيجاز إلى نشأة النحو العربي، ويشير إلى أهم الاتجاهات أو المدارس النحوية، ثم يبين موقف الباحثين في العصر الحديث من هذه المدارس، ويناقش إحدى مسائل الخلاف، وهي مسألة (عامل النصب في المفعول به) كمثال يكشف عن آراء البصريين والكوفيين؛ لينتهي إلى ما يرى أنه الأقرب إلى الصواب في المسألة، وبذلك يقوم البحث بعد المقدمة على النقاط التالية:

- نشأة النحو العربي.
- أهم الاتجاهات النحوية.
- المؤيدون لفكرة المدارس النحوية.

- المعارضون لفكرة المدارس.
- أمثلة للمناقشة: عامل النصب في المفعول به.
- مناقشة رأي البصريين والكوفيين في عامل نصب المفعول به.

ولا يسعني في هذه المقدمة إلا أن أذكر بالفضل كل الذين كتبوا في تاريخ النحو من القدماء والمحدثين، ففتحوا بآرائهم ومؤلفاتهم وبحوثهم وجهودهم مجالات واسعة للدرس والتمحيص في مسائل الخلاف وغيرها.

واللهَ أسألُ أن يُرشِّد القصد ، ويسدد الخطى ، ويجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، إنه نعم المولى ونعم النصير.

نشأة النحو العربي:

يرى روبنز أن المشكلات اللغوية العملية هي التي تؤدي إلى نشأة العلم، وقد حدث ذلك تقريباً بشكل مستقل في أكثر مراكز الحضارة الإنسانية، فكان لكل مركز مزايا ومنجزات، تتشابه أحيانا، وتختلف أحيانا، ولكن بمرور الأيام والتاريخ تتصل المراكز وتتشابك، ويتأثر بعضها ببعض، فتتلاقح الأفكار وتقترب(١).

وهذا الذي يراه هو ما حدث بالفعل بالنسبة للنحو العربي عند نشأته، فقد كانت المشكلات التي تتعلق بشيوع ظاهرة اللحن، وبالذات في القرآن الكريم سواءً كانت في اللسان العربي أم على ألسنة الأعاجم عند قراءتهم لكتاب الله تعالى أو تعلمهم العربية .. كانت هذه المشكلات هي

---

(١) روبنز، ر. ه. موجز تاريخ علم اللغة، ترجمة: أحمد عوض،الكويت، عالم المعرفة، العدد٢٢٧، ١٤١٨ه/١٩٩٧م، ص٢٣،٢٤.

البدايات الأولى لنشأة النحو العربي وقيام بنيانه بلا منازع عند الكثيرين(١).

وأيا كانت الأسباب التي تحمل على ذلك، ومهما يكن فيها من خلاف فليس من المعقول أن ترد نشأة اي علم ونضجه وتعدد اتجاهاته إلى سبب واحد أو شخص واحد، وإنما هي -في رأيي- أسباب تتضافر، واشخاص عديدون.

ومن يتابع ما كتبه علماء الاجتماع حول نشأة الظواهر المختلفة وتغيرها يجد أنهم مجمعون على أن الظواهر لا تنشأ، ولا تتغير نتيجة لحدث وقع مرة ثم انتهى، وإنما تنشأ نتيجة لأسباب تتكرر حتى يصبح تكرارها ظاهرة، تلفت الانتباه، وتشد المهتمين، فتتولد عنها فكرة، قد تكون مختلطة بغيرها، ثم تنمو تلك الفكرة حتى تنضج، ثم تتميز وتستقل، وتصبح شيئاً متميزا مختلفا عن غيره تمام الاختلاف.

وقد يستغرق ذلك جيلاً أو عدة أجيال، وقد تنشأ الفكرة في مكان، ثم تنمو وتستقر في مكان آخر، وليس بغريب بعد ذلك أن يختلف الناس حول نشأتها، أو حول منشئها، ومن سجلها وتتبعها، فكلّ يحدث بما سمع، ويصف ما رأى(٢).

ومن جانب آخر؛ فإن الاتجاهات التي تنشأ لا تكون في الغالب شيئاً واحداً، وإنما تختلف وتتعدد باختلاف البيئات، والأزمنة، والعلماء الذين تحدثوا عنها، ومن هنا رأينا الاتجاهات التي ارخت للنحو العربي ونشأته مختلفة ومتعددة، سواء كانت في البصرة ام الكوفة ، أم في غيرهما.

---

(١) السيرافي، الحسن بن عبد الله. اخبار النحويين البصريين، نشر: فرينس كرنكو، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٦م، ص ٢٠.

(٢) نصر الله، د. محمد خليل. مدخل في النحو العربي، بني سويف، دار الأصول، ١٤٢٠هـ، ص١٤، ١٥.

أهم الاتجاهات النحوية:

تحدث الكثيرون قديماً وحديثاً عن الاتجاهات النحوية، فأوجز بعضهم وأسهب آخرون، ويُعد كتاب أخبار النحويين البصريين لأبي سعيد السيرافي (٥٣٦٨) من أول الكتب التي تحدثت عن نشأة النحو وعن مشاهير النحويين، وذكرت طرفاً من أخبارهم وما أخذه بعضهم عن بعض، وقد بُدئ الكتاب بالحديث عن اختلاف الناس في أول من رسم النحو، وأول من أمر به، وأهم الأسباب التي دعت إليه، ثم ذكر مشاهير النحويين البصريين وطرفا من أخبارهم (١).

ومن كتب القدماء التي ذكرت أخبار النحويين كذلك كتاب أخبار النحويين لشيخ القراء عبد الواحد بن عمر (ه)، فقد ذكر شيئاً عن تاريخ النحو وبعض علمائه، وتحدث عن العلاقة بين النحو والقراءات، وأشار إلى بعض الأخبار عن أشهر النحويين، يقول: "جزء فيه أخبار النحويين"، ثم تحدث عنهم، فبدأ بأبي الأسود (٥١٢٠)، وانتهى بعلي بن حمزة الكسائي.(٥١٨٩)(٢).

ومنها أيضا كتاب طبقات النحويين واللغوين لأبي بكر الزبيدي (٥٣٧٩)، الذي يُعد مرجعاً أصيلاً لتراجم النحويين واللغويين من عهد أبي الأسود إلى عهد شيخه أبي عبد الله الرباحي في القرن الرابع الهجري (٣).

ومنها أيضاً كتاب إنباه الرواة على أنباء النحاة للوزير جمال الدين القفطي (ه) الذي استوعب فيه ذكر مشايخ علمي النحو واللغة في أماكن كثيرة كالحجاز، واليمن، وعمان، واليمامة، والعراق، وفارس،

---

(١) السيرافي. اخبار النحويين البصريين، مرجع سابق، ص ١٣.

(٢) ابن أبي هاشم، عبد الواحد بن عمر. اخبار النحويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الاعتماد، ١٤٠١ه/ ١٩٨١م، ص١١،٣٢.

(٣) الزبيدي، محمد بن الحسن. طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٤م، ينظر: مقدمة المحقق، ص١.

والموصل، وديار بكر، وديار مضر، والجزيرة، والشام، ومصر، وأفريقيا، والأندلس، وصقلية، وغير ذلك من الأماكن(١).

ومن يطالع هذه الكتب لا يجدها تذكر مصطلح مدرسة ، أو مذهب ، أو اتجاه ، أو نظام ، أو شيئاً من ذلك ، وإنما تذكر أخبار النحويين في بيئة واحدة كما فعل السيرافي في كتابه أخبار النحويين البصريين ، أو تذكر أخبار النحويين في بيئات مختلفة كما فعل عبد الواحد بن عمر في كتابه أخبار النحويين ، أو تقسمهم إلى طبقات كما فعل الزبيدي في كتابه طبقات النحويين ، واللغويين الذي قسم فيه النحويين إلى بصريين ، وكوفيين ، ثم قسم البصريين إلى عشر طبقات تبدأ بأبي الأسود وتنتهي بإسماعيل بن القاسم ، وقسم الكوفيين إلى ست طبقات تبدأ بالرؤاسي ، وتنتهي بأصحاب ثعلب (٢).

ومنهم من رتب النحاة على حروف المعجم كأبي الحسن على بن يوسف القفطي ، وكذلك السيوطي إلا أنه قدم المحمدين ، ثم الأحمدين ، ثم رتب النحاة بعد ذلك على حروف المعجم ولم يظهر عند علماء العرب قديماً مصطلح مدرسة ، أو نحوه للدلالة على اتجاه معين في دراسة النحو ، وإنما ظهر للدلالة على هيئة تعليمية ، وتثقيفية تكمن فيها علوم اللغة والدين كالمدرسة النظامية ومدرسة الحكمة، أو للدلالة على عالم كبير متميز في علم معين ، وله تلاميذ وأتباع(٣).

ولعل كتاب الدكتور شوقي ضيف (المدارس النحوية) يكون هو أول كتاب في العصر الحديث يجمع فيه مؤلفه الاتجاهات النحوية، ويقسمها إلى مدارس ، ويرسم في إجمال جهود كل مدرسة، ويبين جهود

---

(١) القفطي، علي بن يوسف. إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٢،٣.

(٢) الزبيدي. طبقات النحويين واللغويين، مرجع سابق، ص١٥١،٢١.

(٣) الرمالي، د. ممدوح عبد الرحمن. لسان عربي ونظام نحوي، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٧م، ص٢٥٠.

كل شخصية فيها ، حيث بدأ بالمدرسة البصرية ، ثم الكوفية، ثم البغدادية، ثم الأندلسية ، ثم المصرية(١).

ومنهم الدكتور عبد الكريم الأسعد في كتابه الوسيط في تاريخ النحو العربي والدكتور عبده الراجحي في كتابه دروس في المذاهب النحوية ، وكذلك الدكتور مصطفى السنجرجي في كتابه المذاهب النحوية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، يقول : ((وقد تمثلت عناية القدماء في الحديث عن المذاهب النحوية في صور مختلفة ، فمنهم من تناول في مؤلفه مذهباً واحداً ، فتحدث عن أئمته، وترجم لهم ، وبين جهودهم كما فعل أبو سعيد السيرافي في كتابه أخبار النحويين البصريين، ومنهم من تناول أكثر من مذهب على نحو ما نرى في كتب الطبقات ، مثل : طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي(٢).

ثم يتناول الحديث عن المحدثين، فيضيف : "وهكذا فعل المحدثون -في مؤلفاتهم ، ومن ثم رأينا من المؤلفات ما يتناول مذهباً واحداً مثل مدرسة البصرة النحوية للدكتور عبد الرحمن السيد ، ومدرسة الكوفة للدكتور مهدي المخزمي ..." (٣).

وإذا رجعنا إلى كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين لابن الأنباري نجده لا يذكر مصطلح مدرسة ، ولكنه يذكر مصطلح (مذهب) يقول : "وذكرت من مذهب كل فريق ما

---

(١) ضيف، د. شوقي ضيف. المدراس النحوية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨م، ص٥-٧

(٢) السنجرجي، د. مصطفى عبد العزيز. المذاهب النحوية في ضوءالدراسات اللغوية الحديثة، مكة المكرمة، الفيصلية، ١٩٠٦ه/ ١٩٨٦م، ص٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٦،٥، وينظر: الراجحي، د. عبده الراجحي. دروس في المذاهب النحوية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٠م.

اعتمد عليه أهل التحقيق ، واعتمد في النصرة على ما أذهب إليه من مذهب أهل الكوفة ، والبصرة على سبيل الإنصاف ، لا التعصب والإسراف" (١).

وبذلك نرى أن القدماء لم يستعملوا مصطلح مدرسة ، يريدون به اتجاهاً نحوياً لطائفة من النحاة ينتمون إلى بلد معين ، فلم يرد مدرسة البصرة ، أو مدرسة الكوفة ، أو غير ذلك ، وإنما الذي رأيناه هو : نحاة البصرة ونحاة الكوفة ، وتبعاً لذلك اختلف علماء اللغة في العصر الحديث بين مؤيد لفكرة المدارس ومعارض.

المؤيدون لفكرة المدارس النحوية:

كما سبقت الإشارة؛ فإن الدكتور شوقي ضيف يعد أول من وضع كتاباً خاصاً تحدث فيه عن المدارس النحوية ، ولكنه لم يكن أول من أطلق هذا المصطلح ، فقد سبقه المستشرق الألماني فلولج الذي درس العربية في لبيزخ ، وفينا ، وباريس ، وألف كتاباً في مدارس العرب النحوية، طبع في ليبزخ سنة ١٨٦٢م.

ومن الرواد السابقين إلى استعمال مصطلح مدرسة نحوية الأستاذ أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام الذي بُدئ نشرُه سنة ١٩٣٣م ، فقد تحدث عن علم النحو ونشأته وتأثره بالأمم الأخرى ، وأشار إلى أنه قد نشأت في الكوفة مدرسة على رأسها الرؤاسي وتلميذاه الكسائي والفراء في مقابل نحو البصرة ، وبدأت من ذلك الحين مدرسة الكوفة تناظر مدرسة البصرة"(٢).

ثم أخذ مصطلح مدرسة يشيع في الاستعمال، فظهر في عدة بحوث منها:

---

(١) الأنباري، عبد الرحمن بن محمد. الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين وألكوفيين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، دار الفكر، ص١ -٥.

(٢) امين، احمد امين. ضحى الإسلام، القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٩٣٣م، ٢/ ٢٩٤.

- الاجتهاد في النحو العربي، بحث قدمه الاستاذ أمين الخولي لمؤتمر المستشرقين بإستنبول سنة ١٩٥١م.
- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، بحث للدكتور مهدي المخزومي حصل به على درجة الدكتوراه من كلية الآداب في جامعة القاهرة سنة ١٩٥٣م .
- مدرسة البصرة النحوية ، بحث للدكتور عبد الرحمن السيد ، حصل به على درجة الماجستير من كلية دار العلوم في جامعة القاهرة سنة ١٩٥٨م .
- المدرسة النحوية في مصر والشام ، بحث للدكتور عبد العال سالم مكرم، حصل به على درجة الماجستير من كلية دار العلوم في جامعة القاهرة سنة ١٩٦٢م(١).
- أبو علي الفارسي، بحث للدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي حصل به على درجة الدكتوراه من كلية دار العلوم في جامعة القاهرة سنة ١٩٥٧م ، وأشار فيه إلى مصطلح مدرسة بصرية ، ومدرسة كوفية(٢).

وهكذا أخذ المصطلح في الانتشار فوجدناه يرد عند الدكتور تمام حسان وهو يتحدث عن المدرستين البصرية والكوفية في كتاب الأصول(٣).

وكذلك ورد عند الشيخ محمد الطنطاوي في كتابه نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، وغير هؤلاء كثيـرون (٤).

---

(١) السنجرجي. المذاهب النحوية، مرجع سابق، ص١١٣،١١٤.

(٢) شلبي، د. عبد الفتاح إسماعيل. أبو علي الفارسي.. حياته ومكانته بيْن ائمة العربية، القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٥٧م، ص٤٤.

(٣) حسان، د. تمام حسان. الأصول، الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٤٠١ه/ ١٩٨١م، ص٤٤.

(٤) السنجرجي. المذاهب النحوية، مرجع سابق، ص١٤٠-١٥٠.

المعارضون لفكرة المدارس النحوية:

يرى الدكتور مهدي المخزومي أن أول من شكك في فكرة المدارس النحوية هو المستشرق فايل في مقدمة كتاب الإنصاف عندما طبع في أوربا؛ حيث ذكر أن الكوفيين لم يؤسسوا مدرسة نحوية خاصة.

وتبعه بروكلمان، فذهب إلى أن الحديث عن المدرستين البصرية والكوفية قد بولغ فيه إلى حد لا مبرر له ،يقول: "... ولكن الذي يظهر لنا أن المنافسات بين علماء هاتين المدرستين البصرة والكوفة قد بولغ فيه إلى حد لا مبرر له "(١).

وقد فتحت مثل هذه الأقوال مجالاً للإنكار والتشكيك في أمر هذه المدارس، فرأينا الأستاذ سعيد الأفغاني ينص على ذلك صراحة يقول " إن نظرة فاحصة في دراسات المحدثين تقودنا إلى الشك في بعض ما عدوه من المسلمات انسحاباً على أذيال بعض القدماء ممن تكلم في النحو والنحاة"، ثم بين وجهة نظره بأن المصنفين قالو نحاة الكوفة ونحاة البصرة ونحاة بغداد ، فساق ذلك إلى قول المحدثين فيما بعد مذهب الكوفيين والبصريين ومذهب البغداديين ، وقد حان الوقت لنصحح هذه التسمية، وتكرر منه ذلك في مواضع كثيرة ، تؤكد رفض فكرة المذاهب أو المدارس النحوية ، ووجوب تصحيح هذه التسمية (٢).

ويتابع الدكتور كمال بشر في كتابه دراسات في علم اللغة ما بداه بروكلمان ، وأكده الدكتور المخزومي ، فيؤكد بأن المدارس تتسم بعدم الالتزام بخط تفكيري واحد ، وبناء على ذلك فليست هناك – في رأيه – مدارس نحوية كوفية ، أو بصرية أو غيرهما ، وإنما هناك

---

(١) بروكلمان، المستشرق كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي، ترجمة: امين شبيل ورفيقه، بيروت، دار العلم للملايين، ٢/٢٨.

(٢) الأفغاني، د. سعيد الأفغاني. من تاريخ النحو، بيروت، دار الفكر، ص٣،٤، وتنظر الصفحات: ٧٦، ٩٥، ٩٧، ١٠٦.

مجموعات من الدارسين عاشت كل مجموعة في مدينة مختلفة ، فهي إذا مدارس جغرافية أقرب منها علمية (١).

ويرفض الدكتور أحمد مختار عمر اتخاذ المعيار الجغرافي أساساً للتقسيم ، ويرى أن مصطلح مدرسة نحوية يعني وجود جماعة من النحاة يصل بينهم رباط من وحدة الفكر والمنهج ، ولا بد أن يكون هناك رائد يتبعه المريدون ، ويتبنون منهجه ، ويعملون على تطويره والدفاع عنه ، وذلك غير موجود في المدارس النحوية(٢).

ويؤكد ذلك الدكتور ممدوح عبد الرحمن الرمالي، فيذهب إلى أن مصطلح مدرسة ظهر عند العرب قديماً واستعمل في الناحية التعليمية كالمدرسة النظامية ومدرسة الحكمة ، وغيرهما، ولكنه شاع في العصر الحديث بعد أن وصل إلى العالم العربي من الأوربيين مروراً بمصطلح المذاهب الأدبية كالمذهب الكلاسيكي والرومانسي والواقعي، بعد أن ظهرت في العالم جماعات أدبية أطلق عليها مدارس كمدرسة الديوان ، ومدرسة أبلو ، ثم تسرب المصطلح إلى علم النحو ، فكتب الدكتور شوقي ضيف "المدارس النحوية"، وكتب الدكتور المخزومي "مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو"، وكتب الدكتور عبد العال سالم "المدارس النحوية في مصر والشام" (٣).

ويرى الدكتور ممدوح الرمالي أن مصطلح مدرسة يعني عند الأوربيين أن جماعة من العلماء في تخصص بعينه يؤمنون بفكرة معينة، فيضعون لها أطراً عامة وإجراءات خاصة، تتبع في تحديد الظاهرة، وهذه الأطر العامة والإجراءات الخاصة تميزها عن جماعة أخرى تتناول العلم

---

(١) بشر، د. محمد كمال. دراسات في علم اللغة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٣م، ص٥٤.

(٢) عمر، د. أحمد مختار عمر. البحث اللغوي عند العرب، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١م، ص٩٩،١٠٠.

(٣) الرمالي. لسان عربي ونظام نحوي، مرجع سابق، ص ٢٠٦،٢٠٧.

نفسه بأطرٍ فكرية وإجراءات خاصة أخرى ، وهذا لم يحدث في البصرة والكوفة ، وإنما الذي حدث أن علماء البصرة بدءوا في وضع نظام نحوي للغة، وعنهم أخذ الكوفيون، ولكن الأسس مشتركة بين الفريقين، وعلى سبيل المثال؛ فقد أخذ البصريون بفكرة العامل كما أخذ به الكوفيون، وكذلك فكرة السماع والقياس على خلاف يسير بينهم (١).

وفي ذلك يرى الدكتور مهدي المخزومي أن صرح النحو العربي بني وفق ثلاثة أصول هي: العامل، والسماع، والقياس، وهذه الأسس مشتركة عند البصريين والكوفيين ، ويخلص من ذلك إلى أن مصطلح مدرسة يعني وجود نظرية لغوية مستقلة ذات أصول منهجية وفكرية جديدة ينادى بها أحد العلماء ، ويلتف حوله عدد من الباحثين يؤمنون بهذه النظرية ويطبقونها ، ويعملون على تطويرها والدفاع عنها لضمان دوامها واستمرارها، وذلك لا ينطبق إلا على البصرة وحدها ، ولا ينسحب على غيرها من المدارس كما شاع عند كثير من الباحثين (٢).

وفي موضع آخر؛ يؤكد هذا الرأي، فيقول: "نحن إذن لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن النحو في الكوفة لم يبدأ بعيداً عن البصرة والذي قام على أساس من النظرية اللغوية البصرية، وما وضعته من أصول وجمعته من مادة لغوية(٣).

ونستخلص من الكلام السابق أن الذين ينكرون وجود المدارس النحوية يرجعون ذلك للأسباب الآتية :

١- عدم وجود أطر عامة يختلف فيها البصريون والكوفيون أو غيرهم .

٢- عدمَ وجود إجراءات خاصة تتبع في تحديد الظواهر وتميز جماعة عن أخرى .

٣- وجود أصول مشتركة بين المدارس هي السماع، والقياس، والعامل.

---

(١) السابق، ص٢٠٥- ٢٠٧.

(٢) السابق، ص٢٥٦،٢٥٧.

(٣) السابق، ص٢٨٤.

وفي إيجاز؛ سوف نناقش هذه الأمور الثلاثة، أما بالنسبة لوجود أصول مشتركة بين المدارس، فلا يوجد فرع من فروع اللغة أو غيرها في عزلة تامة عن الفروع الأخرى، فضلا عن الاتجاهات داخل الفرع الواحد، وليست المدارس النحوية بدعا في ذلك، فهناك المذاهب الفقهية التي تنطلق من أصل واحد، ترجع إليه هو ص الكتاب والسنة، ولكل منها فهمه الخاص وله آراؤه.

ومن الأصول المقررة عند أهل العلم أن هناك قواسم مشتركة بين المدارس أو المذاهب والاتجاهات في كل فروع المعرفة، تجمع بينها، كما هو الأصل فيها، ولا تمنع تلك القواسم من وجود ما ينفرد به كل اتجاه من سمات، تميزه عن غيره.

وأما بالنسبة لعدم وجود أطر خلافية عامة أو إجراءات خاصة لكل مدرسة؛ فسيتضح ذلك من خلال عرض بعض الأمثلة مما اختلف فيه النحاة من المدارس المختلفة.

وبطبيعة الحال؛ فإنه لا يمكن لبحث قصير مثل هذا أن يتناول جميع مسائل الخلاف لنبين وجود أطر الخلاف وإجراءاتها الخاصة من عدمه، ولذلك فسوف أكتفي ببعض الأمثلة، وليكن المثال الأول هو: المسألة الحادية عشرة من مسائل الخلاف عند الأنباري، وهي "العامل في المفعول به".

عامل النصب في المفعول به عند البصريين والكوفيين:

ذهب البصريون إلى أن الفعل يعمل في الفاعل والمفعول به جميعاً ، واحتجوا لذلك بأن الفعل له تأثير في العمل ، أما الفاعل فلا تأثير له ، لأنه اسم ، والأصل في الأسماء أن لا تعمل ، فلا يكون له تأثير في العمل(١). .

(١) الأنباري. الإنصاف في مسائل الخلاف، مرجع سابق، ١/٧٩،٨٠.

وأما الكوفيون؛ فقد اختلفوا في عامل النصب في المفعول به على أربعة آراء (١):

- الأول: ذهب جمهور الكوفيين إلى أن العامل في نصب المفعول به هو الفعل والفاعل جميعاً، ففي نحو " ضرب زيد عمراً " يكون " عمراً " منصوباً بالفعل والفاعل(ضرب زيد).

واحتجوا لذلك بأن الفعل والفاعل يقعان أولاً ، ولا يكون المفعول إلا بعدهما لفظاً أو تقديراً، والفعل والفاعل بمنزلة الشيء الواحد؛ لأنه لا يقع فعل إلا وله فاعل ، ولا يقال فاعل إلا بعد وقوع فعل ، والدليل على أن الفعل والفاعل بمنزلة الشيء الواحد يأتي من سبعة أوجه، هي:

- أن إعراب الفعل في الأمثلة الخمسة ، التي هي : (يفعلان ، تفعلان ، يفعلون ، تفعلون ، تفعلين) يقع بعده الفاعل ، ولولا أنه بمنزلة حرف من الفعل نفسه لما جاز أن يقع بعده .
- أن لام الفعل تسكن إذا اتصل بها ضمير الفاعل ، نحو (ضربت ، ذهبت)، لئلاً يجتمع في كلامهم أربع حركات متواليات في كلمة واحدة ، ولولا أن ضمير الفاعل بمنزلة حرف من الفعل نفسه لما سكنت اللام لأجله .
- أنه يلحق الفعل علامة التأنيث إذا كان الفاعل مؤنثاً ، ولولا أنه بمنزلة بعضه لما ألحقت علامة التأنيث ، لأن الفعل لا يؤنث ، وإنما يؤنث الاسم .
- أن الفعل والفاعل قد يركبان معاً ، كما في نحو ((حبذا)) ويحكم على موضعه بالرفع على الابتداء ، وبذلك أصبحا في موضع واحد .
- أنه قد ينسب إلى الفعل والفاعل معاً ، ففي نحو ((كنت)) ينسب إليها : كنتي بإثبات التاء، قال الشاعر :

فأصبحت كنتياً وأصبحت عاجناً وشر خصال المرء كنت وعاجن(١).

---

(١) الأنباري، الإنصاف، مرجع سابق، ١/٧٨،٧٩.

ولولم يكونا بمنزلة الشيء الواحد لما جازت هذه النسبة .

- انه قد يلغى الفاعل تبعاً للفعل كما في قولهم :"زيد ظننت منطلق " فألغوا (ظننت) ، وهي الفعل والفاعل ولولا أنهما كالشيء الواحد لما وقع ذلك .
- أن الفعل قد يثنى لفظاً فيقال للواحد (قفا)، لأن المعنى قف قف، والتثنية لا تكون إلا للأسماء، فدلت تثنية الفعل على أنه مع الفاعل كالشيء الواحد(٢).

- ورد البصريون ذلك بأن الفاعل اسم والأصل في الأسماء أن لا تعمل(٣) وبذلك يكون العمل للفعل في المفعوليين كليهما.

- وذهب بعضهم إلى أن العامل هو الفاعل، ففي نحو المثال السابق يكون المفعول به منصوباً بالفاعل (زيد) لأنه يسبق المفعول، وقد رد البصريون على ذلك بأن الفاعل اسم، والأصل في الأسماء أن لا تعمل .

- نص هشام بن معاوية(٤)، صاحب الكسائي على أنك إذا قلت: ((ظننت زيداً قائماً)) تنصب زيداً بالتاء (الفاعل)، وقائماً بالظن (الفعل) أي أنه يرى أن الفعل يعمل في المفعول الثاني، وأن الفاعل

---

(١) هذا الشاهد بلا نسبة ، وقد ورد في: ابن يعيش، يعيش بن علي. شرح المفصل، بيروت، عالم الكتب، ١٤/١، وفي: ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، مادة: (كون) ٢٥١/١٧ ، ومادة(عجن)١٤٩/١٧ ، وورد في: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. همع الهوامع شرح جمع الجوامع، بيروت، دار المعرفة، ١٩٣/٢.

(٢) الأنباري. الإنصاف في مسائل الخلاف، مرجع سابق، ٨٠،٧٩/١.

(٣) السابق ٨١/١

(٤) هو أبو عبدالله هشام بن معاوية الضرير النحوي الكوفي أحد أصحاب الكسائي ، توفي سنة ٢٠٩هـ، تنظر ترجمته في: السيوطي. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، ٣٢٨/٢.

يعمل في المفعول الأول، وقد ردوا ذلك بأن الفاعل اسم، والاسم لا يعمل، وبذلك يكون العمل للفعل في المفعولين .

- ذهب خلف الأحمر(١). إلى أن العامل في المفعول معنى المفعولية ، كما أن العامل في الفاعل معنى الفاعلية، وقد رد على هذا الرأي بأنه لو كان الأمر كذلك لوجب أن لا يرتفع مالم يسمى فاعله، نحو: (ضُرب زيد) لعدم وجود معنى الفاعلية ، وأن ينصب الاسم في نحو: (مات زيد) بوجود معنى المفعولية(٢).

مناقشة رأي البصريين والكوفيين في عامل النصب:

إذا تأملنا موقف البصريين والكوفيين من مسألة عامل النصب في المفعول به في ضوء الأسباب الثلاثة التي عارض بموجبها بعض الباحثين فكرة المدارس نجد أن الخلاف بين الفريقين -البصريين والكوفيين – قائم لا يمكن لأحد أن ينكره، ولكن السؤال: هل يرقى ذلك الخلاف ليكون إطاراً فكرياً عاماً وإجراءات خاصة تميز ما بين الفريقين ؟

لقد أكد الدكتور المخزومي أن للكوفيين طابعهم الخاص ولهم مصادرهم التي أرجعوا إليها أصول مذهبهم ، ثم أجملها على النحو التالي:

- النحو البصري بكل شروطه وقيوده.
- لغات الأعراب التي اعتمد عليها البصريون.
- لغات أخرى لم يستشهد بها البصريون.
- الشعر العربي في عصور الاستشهاد.
- القراءات القرآنية (٣).

---

(١) هو ابو محرز بن حيان الملقب بخلف الأحمر ، كان راوية ثقة علامة، توفي في حدود ١٨٠هـ تنظر ترجمته في: السيوطي. بغية الوعاة، مرجع سابق، ٥٥٤/١.

(٢) الأنباري. الإنصاف في مسائل الخلاف، مرجع سابق، ٨١/١.

(٣) المخزومي، د. مهدي المخزومي. مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، بيروت، دار الرائد العربي، ط٣، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٣٣٠-٣٤٨.

ومن جانب آخر فقد رأى الدكتور المخزومي أن القدماء قد أقاموا آراءهم في التمييز بين المذهبين البصري والكوفي على أسس مختلفة، فالبصريون يعتمدون على الأغلب الشائع من كلام العرب، ويحكمون المقاييس العقلية ويلجئون إلى التأويلات ، أما الكوفيون فيقوم مذهبهم على القياس ولو على الشاذ دون أن يمس ذلك القياس روح النص اللغوي ، أو يخالف ظاهر النصوص لإخضاعها لما تواضعوا عليه من أصول(١).

ويرى الدكتور المخزومي ومن يوافقه أن هذه الخلافات ترقى لأن تكون إطاراً يميز بين الفريقين في حين رأى المعارضون أنها ليست كذلك ، وإنما بعضها يكون امتداداً لبعض ، وعندئذ لا تكون مسألة الأطر الفكرية غائبة عند أي من الفريقين وإن كان لكل منهما زاويته التي ينظر منها .

وبالنسبة لمسألة العامل فكما رأينا أن البصريين يرون أن الفعل هو الذي يعمل في الفاعل والمفعول ، لأن له التأثير في العمل ولا تأثير للفاعل لأنه اسم والأصل في الأسماء أن لا تعمل، بينما يرى الكوفيون أن نصب المفعول به يرجع إلى الفعل والفاعل معاً أو إلى الفاعل فقط ، أو إلى أي عامل معنوي .

ولاشك أن ذلك الخلاف لا يمكن لأحد أن ينكره من المؤيدين أو المعارضين ، ولكن الذي حدث أن المؤيدين يرون أن الأصل هو وجود فكرة العامل فهي فكرة مشتركة بين الفريقين وما عدا ذلك من الخلاف فهو متفرع عنها .

وأما الفريق الآخر ، فيرى أن الخلاف حول نظرية العامل في المفعول به يرقى لأن يكون أساساً يميز بين الفريقين ، وأسلوب الحجاج الكوفي كما يبرزه كتاب الإنصاف يؤيد ذلك بوضوح ، فقد كان

---

(١) السابق ٣٤٩-٣٥٢

الكوفيون أقرب إلى المنهج اللغوي ، وأقدر على تصوير العربية من البصريين(١).

والذي يمكن لهذا البحث ان يخلص إليه أن جوانب كثيرة من الخلاف قائمة بين الاتجاهات، لا يمكن لأحد أن ينكرها ولعل كتاب الإنصاف خير دليل على ذلك .

وهناك كتب اخرى مهمة يمكن أن نرى فيها ذلك الخلاف مثل :

- معاني القرآن للقراء.
- مجالس ثعلب .
- شرح ديوان المتبني المسمى بالتبيان في شرح الديوان.
- شرح الفعل لابن يعيس.
- شرح الرضى على الكافية.
- معنى اللبيب لابن هشام .
- شرح الأسمني على الألفية.
- المسائل الخلافية لابي البقاء العكبري(٢).

وقد رأى المؤيدون أن هذه الأعمال وما تحمله من آراء خلافية تكفي للتميز بين الاتجاهات المختلفة، وتؤهلها لأن تكون مدارس مستقلة.

أما المعارضون فقد رأوا أن هذه الخلافات على كثرتها لا تعدو أن تكون شيئاً واحداً هو امتداد لمدرسة البصرة النحوية وحددوا مفهوم مصطلح مدرسة كما يبدو في الاستعمال الغربي ، ورأوا انه لا ينطبق على تلك المدارس.

---

(١) المخزومي. مدرسة الكوفة، مرجع سابق، ص٣٦٦.

(٢) السابق؛ ص٣٥٨-٣٥٩.

وفي رأيي أن لكل فريق حجته ، وله زاويته الخاصة التي انطلق منها، وبنى عليها رأيه بعد ذلك، ولكن الذي أود أن أكده أن حجم الخلاف لم يكن غائباً عند الفريقين على أي وجه من الوجوه، وبذلك يرقى لأن يكون مصدر تمييز بين أعمال الفريقين، كما أن لكل مدرسة من السمات ما يجعلها تمثل اتجاها مستقلا ، وذلك يؤكد فكرة المدارس في الدرس النحوي العربي القديم.

الخاتمة:

من خلال العرض السابق؛ يتبين لنا ما يلي:

- أن الذين بدءوا التشكيك في المدارس أو المذاهب النحوية لم يكونوا عربا ولا مسلمين، ولكنهم كانوا من المستشرقين، وتبعهم بعض الباحثين العرب، وقد يكون ذلك منهم في إطار حملة التشكيك العامة التي وجهت إلى كل ما يمت بصلة للعرب والإسلام في فترة من الفترات بوجه خاص، ولذلك يجب أن ينظر إلى مثل هذه الآراء في هذا السياق، وأن يؤخذ فيه بالمزيد من الدراسة مع الحيطة والحذر.
- أن مصطلح المدارس النحوية لم يظهر عند النحويين القدماء، ولكن المفهوم كان قائما، وفرق بين وجود الفكرة في حد ذاتها وظهور المصطلح، ومن المعروف المسلم به أن الاصطلاح يأتي دائما متأخرا بعد نضوج الفكرة واستقرارها.
- أن الذين أنكروا فكرة المدارس النحوية أرجعوا ذلك إلى ثلاثة عوامل، هي:
  - عدم وجود أطر عامة يختلف فيها البصريون والكوفيون أو غيرهم .
  - عدم وجود إجراءات خاصة تتبع في تحديد الظواهر وتميز جماعة عن أخرى .

- وجود أصول مشتركة بين المدارس، هي: السماع، والقياس، والعامل.

- أن هذه العوامل الثلاثة لا تسلم من النقد، ولا تثبت أمام التمحيص العلمي المحايد، فهناك أطر واضحة للخلاف بين المدارس، ولكل مدرسة ما يميزها عن غيرها، ووجود الأصول المشتركة لا يعني بالضرورة عدم وجود فوارق بينها.
- أن المستقر لدى علماء الاجتماع والجغرافيا أن البيئة تؤثر في الفكر، فيصطبغ بصبغتها، ويختلف باختلافها، وتأثيرها، ونسبة المدارس إلى المكان الذي نشأت فيه يؤكد ذلك، ويرجح جوانب الاختلاف فيها.
- إذا كان هناك من الباحثين من يشكك في فكرة وجود المدارس النحوية، فهناك من يؤيدها ويدافع عنها، ويطعن وبشدة في أدلة المانعين، والدليل متى تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال كما ينص على ذلك علماء الأصول، وعندئذ لا تصلح حجج المانعين لإثبات رأيهم وفرضه على الآخرين.
- تدل دراسة مسائل الخلاف عمليا على وجود الأطر العامة للخلاف وبوضوح، وكذلك تكشف عن سمات التميز بين المدارس وبوضوح أيضا.
- لا يستطيع الباحث المنصف بعد ذلك إلا أن يقر ويعترف بوجود المدارس النحوية أو المذاهب النحوية، بل ويؤكد ذلك، ويدافع عنه.

المصادر والمراجع:

١- الأفغاني ، سعيد الأفغاني: من تاريخ النحو بيروت، دار الفكر د. ت

٢- أمين ، أحمد أمين: ضحى الإسلام ، القاهرة ، مطبعة الاعتماد ، ١٩٣٣م.

٣- الأنباري ، عبدالرحمن بن محمد:الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، القاهـرة، دار الفكر د. ت.

٤- بروكلمان، كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ، ترجمة أمين شبيل و زميله ، بيروت ، دار العلم للملايين، د. ت.

٥- بشر ، د. كمال محمد: دراسات في علم اللغة ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٣م

٦- حسان ، د. تمام حسان: الأصول ، الدار البيضاء ، دار الثقافة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

٧- الراجحي ، د. عبده الراجحي: دروس في المذاهب النحوية ، بيروت ، دار النهضة العربية، ١٩٨٠م

٨- الرمالي، د. ممدوح عبدالرحن: لسان عربي ونظام نحوي ، الأسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ١٩٩٧م

٩- روبنـز ، ر. هـ روبنز: موجز تاريخ علم اللغة ترجمة د. أحمد عوض ، الكويت ، عالم المعرفة العدد ٢٢٧، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١٠- الزبيدي ، محمد بن الحسن: طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٨٤م

١١- السنجرجي ، د. مصطفى عبدالعزيز: المذاهب النحوية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، مكة المكرمة ، الفيصلية ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

١٢- السيرافي ، الحسن بن عبد الله: أخبار النحويين البصريين ، نشر فرينس كرنكو ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٦م.

١٣- السيوطي ، عبدالرحمن بن أبي بكر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، المكتبة العصرية د. ت.
همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، بيروت ، دار المعرفة ، د. ت.

١٤- شلبي ، د. عبدالفتاح إسماعيل: أبو علي الفارسي ، حياته ، ومكانته بين أئمة العربية ، القاهرة ، مكتبة مصر ١٩٥٧م

١٥- ضيف، د. شوقي ضيف، المدارس النحوية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨م.

١٦- عمر ، د. أحمد مختار: البحث اللغوي عند العرب ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧١م

١٧- القفطي ، علي بن يوسف: إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ، القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب

١٨- المخزومي ، د. مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، بيروت، دار الرائد العربي ، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٩- ابن منظور ، محمد بن مكرم: لسان العرب ، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، د. ت.

٢٠- نصر الله ، د. محمد خليل: مدخل في النحو العربي، بني سويف ، دار الأصول ١٤٢٠هـ.

٢١- ابن أبي هاشم ، عبد الواحد بن عمر: أخبار النحويين، تحقيق: محمد بن أبو الفضل، القاهرة، دار الاعتماد، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

٢٢- ابن يعيش ، يعيش بن علي: شرح المفصل ، بيروت ، عالم الكتب د. ت.